مكتبة الجامعة — الدوريات

حولية كلية التربية

السنة الثانيــة | العدد الثــاني | ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م

نحو بيئة تربوية أنقى
للإنسان العربي

الدكتور
صلاح الدين جوهر ★

المشكلة كما يحس بها المواطن الواعي :

لقد بدأ الإنسان في الثلاثين عاماً الأخيرة يفطن إلى الأخطار الناجمة عن تلوث مياه البحار والمحيطات بمخلفات الصناعات المعدنية والكيميائية والبترولية التي تلقى بها المؤسسات الصناعية والورش دون أدنى مبالاة في مياه البحار أو المحيطات القريبة منها .

وبدأ الإنسان قبل ذلك بقليل يفطن إلى الآثار القاتلة للغبار والغازات والأبخرة السامة على صحة الأجيال الحاضرة والمستقبلة والتي تنفثها مداخن المصانع في المدن وفي القرى أو قريباً منها .

وتنبه الإنسان حديثاً إلى تلوث البيئة وامتلائها بالضجيج والضوضاء وخطورة ذلك على الجهازين العصبي والنفسي وعلى حيوية الإنسان بوجه عام .

وكان نتيجة كل هذا أن عقدت المؤتمرات في كل مكان تناقش تلك المخاطر المحدقة بحياة الإنسان وحيويته وهنائه وأثر هذا في مستقبل الأجيال القادمة . وتبنت الأمم المتحدة موضوع تلوث البيئة وكرست جزءاً غير قليل من جهودها واهتمامها لبحث المشكلات المترتبة على تلوث البيئة واقتراح الحلول الكفيلة بالعلاج .

★ أستاذ ورئيس قسم الادارة والتخطيط التربوى بكلية التربية ـ جامعة قطر .

ولكن ... كما يبدو لنا ، فإن نفس هذا الإنسان الذي فطن إلى تلوث بيئته البحرية والجوية لم يفطن بعد إلى المخاطر الناجمة عن تلوث بيئته التربوية . ونقصد بتلوث البيئة التربوية للإنسان وجود مؤثرات غير مرغوبة في الوسط الذي يعيش فيه الإنسان ويتعامل معه ، وهذه المؤثرات من شأنها تعطيل النمو السليم للإنسان من النواحي النفسية والعقلية والقيمية والأخلاقية وتوجيه حياته وسلوكه وجهات لا يرضاها المجتمع ولا يقرها لأن فيها خطورة على كيانه واستقراره وتطوره وتقدمه .

ودليلنا على هذا التلوث في البيئة التربوية أننا نجد الآباء يصرخون بسبب تدهور الحال الذي وصل إليه سلوك وأخلاقيات الأبناء . ونجد المعلمين يجتهدون ويشقون في أداء واجباتهم دون أن يجدوا ثمرة ذلك في تلاميذهم . حتى رجال الدين والمصلحين قد أصابهم التعب والنصب من تكرار ما يعظون به الناس بدون طائل ولا نتيجة تبشر بأي خير . لقد فقد الآباء قدرتهم على توجيه الأبناء وفلت زمام التلاميذ من أيدي المعلمين فأصبحوا عاجزين عن تعليمهم مبادىء القيم والأخلاق والسلوك الاجتماعي المقبول . وفقد رجال الدين والمصلحون قدرتهم التقليدية على شد انتباه الجماهير والتأثير في عقولهم ووجدانهم .

ولكن من أين يأتي تلوث البيئة التربوية للإنسان العربي ؟ ... وما مصادره ؟ من أجل الإجابة عن هذين التساؤلين فإننا نقول أن المسئول الأول عن تربية النشىء هي الأسرة ... ثم المدرسة . انهما شركاء في مسئولية واحدة هي خلق وتكوين مواطنين صالحين منتجين شرفاء . غير أنه لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا وجود مؤسسات وأجهزة أُخرى في المجتمع تسهم في تشكيل شخصية الإنسان وتربيته حتى ولو لم تفطن إلى حقيقة الدور الذي تلعبه . اننا نقصد بذلك في الدرجة الأولى أجهزة الاعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وسينما ومسرح وتليفزيون . لقد باتت هذه الأجهزة تؤثر في تشكيل عقلية الإنسان المعاصر ، وبخاصة في مرحلتي الطفولة والشباب ، وتوجه اهتماماته وسلوكه في حياته اليومية وتغرس في نفسه قيماً وتفضيلات ليست كلها من النوع المرغوب من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية .

لقد بات الجميع يعترف بخطورة الدور الذي تلعبه أجهزة الاعلام في تشكيل عقول الناس وفي غرس قيم واتجاهات لا تقرها مجتمعاتنا ولا ترضاها ، أن الجميع يصرخ ويئن بسبب ما فعلته تلك الأجهزة في خلق جيل أقل ما يوصف به أنه جيل غير قادر على التفاهم مع الجيل الذي سبقه ، وغير مستعد ولا مهيأ للاستفادة من خبراته وتوجيهاته . جيل تحرر من كل شيء إلا من الرغبة الملحة في إشباع أهوائه وتحقيق طموحاته بأسرع وأيسر السبل حتى ولو كان في هذا خرق للأعراف والقيم وقواعد الأخلاق .

يشهد الجميع بأن العاملين في الاعلام (صحافة وإذاعة وسينما ومسرح وتليفزيون) قد بلغوا درجة بعيدة من النجاح في تأليف وإخراج وتقديم انتاجهم من قصص ومقالات وتمثيليات ومسلسلات ، ولكن يبدو أن كثيراً من هؤلاء الذين نجحوا لا يدركون عمق الأثر الذي تتركه الكلمة والحركة والسكنة في تشكيل العقول ولا يحسون بخطورة القيم والاتجاهات الجديدة التي يزرعونها في نفوس الناشئة والبالغين على السواء . إن ما تبثه هذه الأجهزة وما تنشره يومياً قد تسلل إلى كل أُسرة وتعمق أثره في نفوس الناشئة والكبار ولم يعد هناك مجال لانكار هذا الأثر أو التقليل من خطورته .

ونحن وإن كنا لا نوافق على أن تتنصل الأسرة والمدرسة من مسئولياتهما التربوية ، إلا أننا نعترف بأنه قد بات عسيراً عليهما القيام بهذه المسئوليات على الوجه الأكمل بينما هناك أجهزة ومؤثرات أُخرى في البيئة تعمل في الاتجاه المضاد .

ولا نحب كذلك أن نتشكك في حسن نوايا رجال الاعـــلام العربي ، بل قد نؤكد أن ما يفعلونه بالإنسان العربي وما يسببون له من أضرار كثيراً ما يصدر عنهم من غير قصد ، وذلك لأن غالبيتهم لا يدركون وسط زحمة العمل اليومي وتحت تأثير السباق والتنافس بينهم في إرضاء الجماهير وشد انتباهها ... لا يدركون أنهم إنما يضرون هذه الجماهير ويتركون في عقولها ونفوسها آثاراً عميقة من الفكر السقيم ومن القيم والعادات الفكرية والسلوكية المرضية التي قد لا تنمحي .

وحتى تكتمل الصورة فإنه ينبغي أن نعترف بوجود مصادر أُخرى لتلوث البيئة التربوية العربية منها المدرسة ذاتها . غريب أن يتهم المرء المدارس والمؤسسات التعليمية بأنها قد أصبحت مصدراً من مصادر تلوث البيئة التربوية بينما المفترض فيها أنها المسئولة التقليدية عن تعليم النشيء وتربيتهم . ولكن حقيقة الممارسات تشير إلى أن كثيراً من مؤسسات التعليم المعاصرة قد أصبحت بيئات ضارة تربوياً بسبب انعدام القدوة الأخلاقية والسلوكية فيها ، وبسبب السباق من أجل الحياة بين المعلمين وبعضهم . وهـــذا ليس بالأمر الغريب بالنسبة للمدارس أن تصبح مصدراً من مصادر تلوث البيئة التربوية للنشيء ، فكم من المستشفيات ومؤسسات العلاج قد انتشرت فيها جراثيم الأمراض والأوبئة ، بسبب الاهمال والتراخي واللامبالاة وانعدام الشعور بالمسئولية ، وأصبحت مصدراً خطـــيراً من مصادر العدوى القاتلة بالنسبة للمريض والسليم على السواء .

وثمة مصدر آخر من مصادر تلوث البيئة التربوية للطفل العربي وهو الأسرة العربية ذاتها وتحت تأثير التغيرات العديدة التي أصابت جوهر التفاعلات بين أفرادها نتيجة التوجهات والتطلعات المادية الغريبة التي اكتسبتها المجتمعات العربية على حساب قيمها وتقاليدها الأصيلة .

إن هناك العديد من المؤسسات والجماعات في كل مجتمع تعد بطريق أو بآخر من مصادر تلوث البيئة التربوية للإنسان العربي ، ولكننا سوف نكتفي في هذا المقال بمؤسسات الاعلام وأجهزته من حيث هي شريك متفاعل مع المؤسسات التعليمية ، على أمل أن نعود في المستقبل إلى تناول الأسرة والمدرسة بالفحص والتحليل لعلنا نصل في النهاية إلى شيء نصلح به البيئة التربوية للإنسان العربي ونحميها من التلوث .

وحتى لا يساء فهم قصدنا وندائنا بضرورة تنقية الاعلام العربي من كل ما يعكر ويلوث البيئة التربوية للإنسان العربي ، وحتى لا تفهم دعوتنا على أنها دعوة إلى فرض قيود على حرية أجهزة الاعلام فإننا نؤكد أننا ننأى بأنفسنا عن أن نقع في هذا الخطأ ، ولكننا في نفس الوقت نود أن نؤكد للإعلاميين أن حرية أجهزة الاعلام ، وهي من ضرورات الديمقراطية ، لا تعني الانفلات والتشويش ولا ينبغي أن تؤدي

إلى تلويث البيئة التربوية للصغار والكبار ، ولا الرجال والنساء . إن حرية أجهزة الاعلام في المجتمع الديمقراطي ينبغي أن تسير جنباً إلى جنب الالتزام بمسئوليات محددة تجاه المجتمع . إنها حرية تمارس فقط في إطار قيم المجتمع ، ويحدد مسارها ما يراه المجتمع صالحاً ومحققاً لرفاهيته واستقراره ونمائه . ولذلك وفي إطار حرية الاعلام التي نفهمها فإننا ننادي بوجود نوع من « الرقابة » على العمل الاعلامي العربي ، ولكنها ليست رقابة سياسية ، وليست رقابة عسكرية ، وليست رقابة إدارية ، وليست رقابة قانونية ، إنها رقابة من نوع خاص يراد به أن يصبح كل رجل يعمل في مجال الاعلام رقيباً ذاتياً على كل ما ينتجه . وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال إلا عن طريق الاقتناع بالهدف والغاية من وراء كل الأعمال الاعلامية ومن الإحساس العميق بضخامة مسئولية الاعلام في تشكيل عقلية وتفكير الإنسان العربي وفي بناء شخصيته وفي تدعيم القيم والعلاقات الاجتماعية الصحيحة في إطارها الإسلامي .

محاولات قياس تلوث البيئة التربوية :

لقد دفع الانتشار السريع والتقدم الهائل في تكنولوجيا الاعلام الحديث خبراء التربية وعلماء النفس وعلماء الاجتماع في بداية الأمر إلى الاهتمام بتحليل الآثار المباشرة للبرامج الاعلامية — وبخاصة منها ما يصل عبر الاذاعة والسينما والتليفزيون إلى الجماهير . وأثار هذا الاهتمام مناقشات وجدال طويلين حول التأثيرات التربوية للبرامج الاعلامية ولكن من منظور ميكانيكي بحت يهتم بدراسة الفعل ورد الفعل للبرامج الاعلامية على النمو المعرفي وسلوك الأفراد . وقد أدرك الكثيرون من هؤلاء المهتمين بقياس الأثر الاعلامي عقم الأسلوب الذي اتبعوه لأنه لم يوصلهم إلى شيء ذي قيمة كبيرة ، وكانت نتيجة ذلك ظهور اتجاه جديد في البحث أدى إلى الاعتراف بأن الاعلام بكل مضمونه ومحتواه يعتبر واحداً من مؤثرات بيئية متغيرة ومتعددة تسهم في تغيير اتجاهات الأفراد وسلوكهم بطريقة تدريجية ، وأن هذا التأثير يختلف في مداه باختلاف الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية للأفراد الذين يتعرضون لمحتوى البرامج الاعلامية .

لسنا هنا بصدد حصر محاولات قياس تلوث البيئة التربوية نتيجة ما تبثه أجهزة الاعلام ، وبخاصة التليفزيون ، ولكننا نهتم فقط بتوجيه الأنظار إلى أن جل هذه المحاولات لم تصل إلى نتائج مقنعة يعتمد عليها أو يوثق فيها كثيراً . فإذا أخذنا على سبيل المثال تلك البحوث التي تمت حتى يومنا هذا لقياس الآثار المترتبة على البث التليفزيوني في نفوس الأطفال والناشئة لوجدنا غالبية الباحثين الغربيين يهونون من تلك الآثار ، وحجتهم في هذا حجة متشعبة ، فتارة يقولون أن الطفل الطبيعي السوي لا يتأثر بما يبثه التليفزيون من أفلام العنف والجريمة والانحراف . قد يكون هذا صحيحاً ولكن لا ينبغي أن يفوت علينا أن هذا الطفل الطبيعي السوي كفرد ليس هو المعيار الذي ينبغي القياس عليه وإلا لجاز لنا أن نقول أن الأوبئة المرضية ليست ضارة ما دام نفر قليل من الأفراد يفلتون منها وينجون وحتى أُولئك الذين يفلتون وينجون من الأوبئة فإنه لا يجوز إهمالهم أو التهوين من احتمال وقوعهم في دائرة المصابين بها يوماً من الأيام .

وكما يقول بعض الخبراء(١) فإنه وإن كان صحيحاً أن التليفزيون ليس هو السبب الوحيد للانحراف وجناح الأحداث وأنه ليس مسئولا وحده عن الأمراض النفسية والعضوية التي قد تصيب الأطفال ، إلا أنه لا يمكن في الوقت ذاته انكار أثر التليفزيون في تلوث البيئة التربوية للطفل .

صحيح أنه لا أحد يجادل أو يقلل من قيمة الدور الذي يلعبه التليفزيون كجهاز تعليمي . ولا أحد ينكر أن التليفزيون كجهاز تعليمي بات يضارع بيئة الأسرة والبيئة المدرسية من حيث أثره ووقعه في عقلية ووجدان من يتعرضون لبرامجه المختلفة . ولكن الأمر الذي يثور حوله الجدل والنقاش هو مدى وعمق وشدة الأثر الذي تتركه برامج التليفزيون في نفوس وعقول المشاهدين وفي سلوكهم كما تعبر عنه نتائج البحوث والدراسات التي تمت حتى الآن . ولعل مصدر تشككنا في نتائج هذه البحوث هو أنها بصفة عامة لم تقدر ، وليس باستطاعتها ، لأسباب فنية وغير

---

(١) د. ابراهيم إمام ، « الإعلام الإذاعي والتليفزيون »

فنية أن تقيس الآثار التراكمية المتفاعلة بعيدة المدى للبث التليفزيوني أو الإذاعي . وحتى لو كانت الأرقام والمتوسطات والارتباطات التي تنتهي بها مثل هذه البحوث والدراسات صحيحة من الوجهة الاحصائية فإننا نميل إلى رفضها على أساس أن ضحايا تلوث البيئة التربوية هم بشر قبل كل شيء ومهما كانت أعدادهم قليلة وغير دالة إحصائياً . ولذلك فإننا نميل إلى رفض نتائج البحوث التي تهوّن من آثار تلوث البيئة التربوية للإنسان حتى لو كانت هذه النتائج غير دالة إحصائياً ، وذلك من منطلق أن للإنسان قيمة في حد ذاته ينبغي أن نصونها من الضياع أو التحلل وقيمة الإنسان تعلو قيمة الأرقام والمتوسطات وله وزن ينبغي أن يفوق ويتقدم المصالح المادية التي تسعى إلى تحقيقها أجهزة الاعلام المعاصرة .

لقد آن الأوان لأن يتنبه الباحثون إلى أن الآثار التراكمية المتفاعلة لبرامج التليفزيون والسينما والإذاعة ، والتي لم ينجحوا حتى الآن في قياسها ، هذه الآثار بعيدة المدى لا تلبث أن تتطور وتصبح ذوقاً عاماً لا يرضى عنه المشاهدون بديلا سواء أكانوا أطفالا أم بالغين . ويكفي أن ننبه الباحثين المخلصين إلى أن تلك الآثار التراكمية ، والتي لا يمكن قياسها مباشرة باستخدام الأساليب والتقنيات البحثية الحاضرة ، إنما تنتج عن أن الأفراد عندما يشاهدون برامج التليفزيون والسينما أو يستمعون إلى البرامج الإذاعية فإنهم يضيفون إليها ويعدلون فيها عن طريق خبراتهم الذاتية ومعايشتهم الأحداث اليومية ومعاناتهم مواقف الحياة الشخصية وفي كل هذا تكمن صعوبة القياس ويكمن الخطر كله .

وما زال النقاش يثور حول تأثير التليفزيون على الصغار والكبار ، غير أن غالبية هذا النقاش ذات طابع جدليّ يحتاج إلى بحوث تجريبية موضوعية تحسمه بشكل قاطع ، ولكن السبيل إلى هذا الحسم غير متيسر لأسباب عديدة منها :

أولا : أن البحث في مجال الاعلام ، وفي مجال التليفزيون بخاصة ، يتطلب نفقات باهظة

ثانياً : أن أنشطة الاعلام تتسم بالدينامية وسرعة الحركة ، الأمر الذي لا يستطيع أن يجاريه الباحث الذي يحتاج إلى التأني بحكم طبيعة عمله .

ثالثاً : أن البحوث في مجال تأثيرات أجهزة الاعلام لا تستطيع أن تحمي نفسها من الضغوط السياسية وضغوط أصحاب المصلحة في بقاء هذه الأجهزة وازدهارها وأصدق مثل على هذا ما حدث عام ١٩٧٢ عندما تشكلت لجنة بقرار من رئيس الولايات المتحدة يومذاك لبحث أثر برامج العنف التي يعرضها التليفزيون على سلوك الأطفال . لقد تكاثفت الضغوط السياسية وغيرها حتى أفشلت اللجنة وشلت حركتها .

رابعاً : أن البحث في مجال قياس تأثيرات برامج الاعلام على سلوك الأفراد يحتاج إلى ضوابط عديدة معقدة وإلى فترات زمنية طويلة ، وهي أُمور لا يقدر عليها الباحث حتى لو توفر فيه قدر كبير من الحرص والموضوعية والاخلاص للعمل .

وحتى لا يفهم من سياق الحديث أننا نتجنى أو نلقي التبعة كلها على التليفزيون وغيره من أجهزة الاعلام المعاصرة في تلويث البيئة التربوية ، أو أن فساد البيئة التربوية وتلوثها قد اختصت به أجهزة الاعلام دون غيرها ، فإننا نقول أن المدرسة المعاصرة ، وهي أداة تربوية يفترض فيها النقاء قد ابتعدت كثيراً عن هذا النقاء التربوي مما جعل التربويين من رجال التعليم يصرخون وينادون بضرورة اصلاح المناخ المدرسي وتنقيته بعد أن وصلته عناصر التلوث التربوي وأصبحت المدارس مثل المستشفيات التي تنتشر فيها جراثيم التيتانوس أو جرثومة أي مرض وبائي آخر .

بعض مظاهر تلوث البيئة التربوية :

أياً كان موقف الباحثين من التأثيرات التربوية الضارة للاعلام المعاصر وبخاصة تلك التي تصدر عن التليفزيون فإن الناس يقفون مشدوهين أمام ما تتركه تلك الأداة في نفوس الصغار والكبار . ويحاول البعض التهوين من قدر هذه الآثار معتقدين أن الأسرة المتكاملة المتماسكة تستطيع بأساليبها التربوية أن تتغلب على هذه الآثار وبذلك تجعل دور التليفزيون دوراً هامشياً . غير أن هذا الاعتقاد مردود عليه من منطلقين أولهما مؤداه أن الأسرة المعاصرة ليست متكاملة ولا متماسكة بل أن دورها في التربية ،

وبخاصة فيما يتعلق بالقيم والمعايير الاجتماعية دور آخذ في التدهور والانحسار . ويخطىء البعض عندما يظنون أن التليفزيون يجمع أفراد الأسرة ويقرب بينهم . إن هذا الظن صحيح لو أننا نظرنا إليه من المنظور المادي الجسدي ، غير أن جمع أفراد الأسرة والتقريب بين أعضائها لا يكون له الأثر التربوي المرغوب إلا إذا صاحبه تبادل في الخبرات والآراء والأفكار ، وهذا هو ما تفتقده الأسرة المعاصرة عندما تجتمع أمام شاشة التليفزيون لأن كل عضو فيها إنما يرى ما يراه من زاويته الخاصة متأثراً بظروفه وخبراته الشخصية وتكون حصيلة ما يشاهده عضو الأسرة مختلفاً تماماً عن حصيلة أي فرد آخر في نفس الأسرة . ويترتب على هذا أن الخبرات والقيم التي تنمو وتثبت في نفوس الناشئة تصبح مع مرور الأيام مختلفة تماماً عن تلك التي يحاول الآباء غرسها وتثبيتها في نفوس أبنائهم .

أما المنطلق الثاني الذي نرُد به على دعوى من يظنون أن بإمكان الأسرة تحييد الآثار المترتبة عن التليفزيون وموازنتها فإنه يتلخص في أن هذه الأسرة ذاتها التي نأمل فيها تلك القدرة قد تأثرت هي الأخرى بالقيم التي ينفثها التليفزيون من خلال أفلامه ومسلسلاته . ولسنا مغالين عندما نقول أن الكثير من هذه القيم التليفزيونية قد حلّت تماماً محل القيم التي تغرسها الأسرة في أبنائها . فالأطفال والصغار عندما يتابعون الأفلام والمسلسلات التليفزيونية قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة يستطيعون إدراك معاني كثيرة من معاني الحياة ... ولكن بشكلها التليفزيوني ، فيرسخ في ذهن الطفل منذ نعـــومة أظفاره على سبيل المثـــال تمجيد الفنانات والممثلات ونجوم الكرة والمصارعة والحواه على حساب أصحاب المهن الأخرى المنتجة كالأطباء والمهندسين والمعلمين والعلماء . ونتيجة ذلك أن تتغير نظرة الطفل إلى أُمه وأبيه مع مرور السنين ، ويتأثر سلوكه معهم وتتضاءل استجابته لنصحهم وتوجيهاتهم . هذا بالنسبة للصغار ، أما بالنسبة للكبار فإن المرأة كما تصورها الأفلام والمسلسلات التليفزيونية قد أصبحت هي البطلة التي ينبغي تقليدها ومحاكاتها . وياليت تلك الأفلام والمسلسلات التليفزيونية تمجّد وتعظم المرأة الفاضلة سواء كانت أماً أو زوجة ولكنها على العكس تضعها في صورة تدعو إلى الملل والسأم بحيث يضيق بها كل

من يشاهدها . وفي مقابل هذا فإن نفس الأفلام والمسلسلات والاعلانات التليفزيونية والسينمائية تبرز البطولات النسائية في صورة غير مستساغة أخلاقياً ، وغير مقبولة اجتماعياً ، ولا تلبث أن تستقر صورة المرأة بهذه الصفات في نفوس النساء الصغار والكبار على السواء حتى تصبح هذه الصفات فضائل أخلاقية واجتماعية يحتذى بها . والرجال هم الآخرون لم ينجوا من آثار الأفلام والمسلسلات والاعلانات التليفزيونية والسينمائية . فالبطولات الرجالية في التليفزيون والسينما تتميز بالرشاقة والجمال المظهري ، أو بالجاذبية والفحولة الجنسية ، أو بالعنف والتمرد والعربدة ، كل ذلك على حساب معاني وقيم أخلاقية ضرورية لاستقامة الحيـــاة مثل الشهامة والكرم والنخوة والعدل والايثار .

ومع تغير صورة المرأة والرجل في أذهان الجماهير نتيجة المؤثرات التليفزيونية والسينمائية فقد كان ضرورياً أن تتغير النظرة إلى الزواج وإلى الحياة الأسرية ، وهذا ما نلاحظه في سلوك الشباب الذين تزوجوا حديثاً والذين لم يلحقوا بقطار الزواج بعد . إن تطلعات وتوقعات الشباب المعاصر من وراء الزواج مختلفة تماماً عن تطلعات وتوقعات الجيل الذي سبقهم . ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بأي الفريقين أفضل ، إلا أنه يمكن أن نخرج بأحكام تقريبية لو تأملنا مسيرة الحياة اليومية للأسرة الحديثة مقارنة بمسيرة الأسرة في الجيلين السابقين أي قبل اقتحام برامج التليفزيون والسينما حجرات نومنا واسترخائنا .

ومن تأثيرات السينما والتليفزيون كذلك التي تلوث البيئة التربوية للصغار سوء استعمال اللغة . فأسلوب الأداء مليء بالعبارات الشاذة والمصطلحات الدخيلة والنطق المنحرف . واستخدام اللغة العامية في أحط تركيباتها قد أصبح أمراً عادياً بالنسبة للصغار والكبار على السواء . كل هذا وغيره من الأمثلة قد جعل مهمّة المدرسة في تنقية القاموس اللغوي للأطفال والشباب مهمة غاية في الصعوبة .

ومن الآثار الضارة للتليفزيون على النمو الجسمي وسلامة حواس الأطفال والناشئة تلك الآثار التي تترتب على طول الجلوس أمام أجهزة التليفزيون . ورغم

ذلك فإن أحداً من الباحثين لم يتعرض لقياس تلك الآثار بعد ، ربما لأن قياسها يحتاج إلى سنوات طويلة يتفرغ فيها الباحث لمتابعة ومشاهدة الأفراد موضوع البحث وهذا أمر لا يقدر عليه غالبية الباحثين المعاصرين .

وهناك تأثير ضار آخر للتليفزيون والإذاعة لم يحظ بعد باهتمام الباحثين رغم أنه يسبب اعوجاجاً خطيراً في الأسلوب الذي ينمو عليه الانسان الذي يتعرض لمشاهدة التليفزيون أو الاستماع إلى الاذاعة لفترات زمنية متكررة وطويلة . هذا التأثير الضار ينشأ عن أن مشاهدة التليفزيون أو الاستماع إلى الإذاعة يخلق في المشاهدين والمستمعين في المدى الطويل نوعاً من السلبية ، وذلك لأن هاتين الوسيلتين الاعلاميتين تصبّان في آذان الناس كلاماً وأفكاراً وتملأ عيونهم بمشاهد عديدة دون أن تطلب منهم أن يفكروا أو يكون لهم حق الاعتراض إذا شاءوا ، وحتى إذا شاءوا الاعتراض فإن السبيل صعب وطويل ومملّ . لذلك فإننا نستحث الباحثين على تقصي هذا النوع من السلبية الذي ينشأ عن إدمان مشاهدة التليفزيون أو الاستماع إلى الإذاعة ، ونحتاج من الباحثين كذلك أن يكشفوا لنا عن مدى هذه السلبية ومعرفة ما إذا كانت تمتد إلى جوانب الحياة اليومية العادية للأفراد الذين يتعرضون بإدمان لبرامج الاعلام المختلفة .

مظلة التربيـــة :

لا نود أن نخوض أو نسترسل في سرد تعريفات معينة للتربية قد نختلف حول مدلولها وفحواها ، ويكفينا أن نستخلص من كل التعاريف التي تملأ الأدب التربوي والأدب السوسيولوجي المعاصر بأن التربية إنما « هي وظيفة حيوية من وظائف وأنشطة المجتمع الإنساني يقوم بها عن وعي وإدراك وقصد لأنها ترتبط ببقائه واستمراره وكذلك ببقاء أفراده وجماعاته واستمرارهم » . والمقصود بالبقاء والاستمرار هنا شيء أبعد وأشمل من مجرد البقاء والاستمرار المادي الجسدي ... إنه بقاء واستمرار ثقافي يشمل المعتقدات والأفكار والأعراف واللغات وأساليب الحياة وطرائقها وكل ما يميز المجتمعات الإنسانية عن بعضها وعن المجتمعات الحيوانية.

والمجتمعات الإنسانية عندما تقوم بوظيفة التربية فهي تقوم بها عن طريق الأفراد أنفسهم ، فنجد الآباء يربون أبناءهم في إطار ما يرتضيه المجتمع ويسعى إليه ، وكذلك عن طريق مؤسسات المجتمع وأجهزته المتنوعة مثل المؤسسات التعليمية على اختلاف مستوياتها وأنواعها ، وأجهزة الاعلام على اختلافِ مسمياتها ، وكذلك المؤسسات الاجتماعية والدينية التي تهتم بجانب أو أكثر من جوانب التربية الشاملة . وبذلك فإن « التربية » تشبه المظلة الكبيرة التي يعمل تحتها ومن أجلها أجهزة ومؤسسات التعليم والاعلام معاً لكي تكمل رسالة « الأسرة » وتيسر فعالياتها في بلوغ الغايات والأهداف التربوية التي تضمن بقاء المجتمع واستمراره ونماءه .

هذا ويلاحظ أن الخبراء المتخصصين يستخدمون تسميات مختلفة للتعبير عن تلك الوظيفة الحيوية من وظائف المجتمع التي تضمن بقاءه واستمراره . فرجال التعليم اصطلحوا على تسميتها « التربية » . وعلماء الاجتماع والاجتماعيون يسمونها « التنشئة الاجتماعية » أو « الصقل الاجتماعي » . وعلماء الاقتصاد يسمونها « التنمية البشرية » ، بينما رجال الاعلام يستخدمون عادة ألفاظاً مثل « التوعية » أو « التثقيف » للتعبير عن مدلولات تقترب كثيراً من مدلول لفظ « التربية » الذي يستخدمه التربويون ورجال التعليم .

ونحن عندما نعترف بهذا التباين والاختلاف بين أصحاب التخصصات المختلفة في تسمية تلك الوظيفة الاجتماعية الحيوية فإننا لا نريد أن نتحيز لفريق دون فريق ، وإنما يكفينا أن نستخدم من هذه التسميات أقدمها وأكثرها شيوعاً وشمولاً ، وهو لفظ « التربية » .

و « التربية » التي ارتضيناها اسماً لتلك الوظيفة الاجتماعية الحيوية التي تضمن بقاء المجتمعات واستمرارها ونماءها تهتم بأمور ثلاث :

- فعلى المستوى الفردي نجد أن التربية تعني تنمية الإنسان الفرد تنمية شاملة من الناحية الجسمية والعقلية والوجدانية .
- وعلى المستوى الاجتماعي أو المجتمعي نجد أن التربية تعنى بإعداد الفرد للحياة في مجتمع ، وذلك بإعداده للقيام بأدواره المختلفة في هذا المجتمع .

— وعلى المستوى الثقافي أو الحضاري نجد أن التربية تهتم بأمور ثلاث :

١ — نقل التراث الثقافي الحضاري نقلا دينامياً من جيل إلى الجيل الذي يليه .

٢ — تمكين الأفراد والجماعات من المشاركة والاستمتاع بالثمار الثقافية والحضارية للمجتمـــع .

٣ — إعداد وتهيئة الأفراد والجماعات للقيام بدورها في بناء وتطوير ثقافة المجتمع وحضارته المستقبلة .

وقصة « التربية » في المجتمعات الإنسانية قصة شيقة . فالأسرة الإنسانية تعتبر الجماعة الأولى في حياة الإنسان التي تقوم بتربية النشىء ورعايتهم . وظلت الأسرة تقوم بواجبها التربوي خير قيام ردحاً طويلا من الزمان دون كلل ولا ضجر . وبمرور السنين تطورت المجتمعات الانسانية وتعقدت حياتها وشئونها ووجدت « الأسرة » الإنسانية نفسها تفقد قدرتها تدريجياً على القيام بما تعودت أن تقوم به بفعالية وكفاءة ، ومن ثم كان ضرورياً أن تظهر في المجتمعات أنواع أخرى من التنظيمات تساعد الأسرة فيما عجزت عن القيام به ، فجاءت المدرسة نتيجة الإحساس بحاجة ملحة ضرورية لتقوم بدور رئيسي في معاونة الأسرة في القيام بدورها التربوي واختصت بجانب حيوي من جوانب العملية التربوية وهو الجانب المعرفي المهاري الذي يرتبط بصفة أساسية بإعداد النشىء لممارسة دور من أدوار الحياة التي يحتاجها المجتمع ويطلبها . وهنا قد يعترض رجال التعليم على تحديد دور المدرسة بهذا المعنى الضيق والحقيقة هي أن الأصل في دور المدرسة أن يكون كاملا شاملا كل جوانب العملية التربوية ، غير أن طبيعة الأمور وتطور الممارسات اليومية قد اضطرت المدرسة إلى قصر نشاطها على جانب بعينه من الجوانب العديدة المتشعبة من جوانب العملية التربويـــة .

التربية النظامية والتربية غير النظامية :

كل عمل يؤدي إلى ... ، أو قصد من ورائه بناء الشخصية الإنسانية أو التأثير فيها يدخل تحت « المظلة التربوية » . وبهذا المفهوم فإن المؤثرات التربوية مؤثرات

عديدة ومتشعبة يصعب حصرها . غير أن هناك لفيف من رجال التربية قد ابتدعوا تصنيفاً مفيداً يمكن من خلاله فحص التأثيرات التربوية في المجتمع في يسر وسهولة . وطبقاً لهذا التصنيف فإن جميع التأثيرات التربوية أياً كان مصدرها تنقسم إلى صنفين أولهما التأثيرات التربوية النظامية وثانيهما التأثيرات التربوية غير النظامية . ويقصد بالتأثيرات التربوية النظامية كل التأثيرات التي تصدر عن مؤسسات متخصصة في أوقات ووفق برامج يراعى فيها قواعد وأصول ومتطلبات النمو المتدرج للفرد من نواحيه العقلية والوجدانية والأخلاقية والمهارية . وخير مثال لتلك التأثيرات التربوية النظامية ما تقوم به المؤسسات التعليمية على اختلاف أنواعها ومستوياتها .

أما الصنف الثاني من التأثيرات التربوية فهو التأثيرات غير النظامية التي لا تخضع لشروط ولا قواعد ترتبط بمراحل نمو الفرد ومتطلبات كل مرحلة من هذه المراحل ، وذلك لأنها تخاطب جماهير متنوعة من حيث مستوى الإدراك في آن واحد . ومن هذا المنظور فإن الفرق الجوهري الذي يميز بين نوعي التربية يتمثل في أن واحدة منهما ، وهي التربية النظامية أو التأثيرات التربوية النظامية ، تتبع نهجاً محدداً نحو أهداف وغايات محددة مسبقاً ووفق برامج وخطوات تتمشى مع خصائص مراحل نمو الفرد ومتطلباتها . بينما التربية غير النظامية ينقصها ذلك الانضباط . ومن أمثلة التأثيرات التربوية غير النظامية كل ما يصادفه الإنسان في حياته اليومية ويتفاعل معه سواء أكان هذا حديثاً عابراً أو مقالا يقرأه في صحيفة أو برنامجاً تليفزيونياً يشاهده مما يتعرض له الإنسان العادي ويتفاعل معه ويتأثر به أو ينفعل له .

وأين دور الاعلام في عملية « التربية » ... ؟ يتفق خبراء الاعلام المعاصرون على أن الاعلام الحديث — أياً كانت وسائله — يؤدي وظائف أربعة هامة بالنسبة للمجتمعات المعاصرة ، وأن هذه الوظائف هي على وجه التحديد :

أولا : التوجيـــه :

ومعناه هنا توجيه الأفراد في حياتهم وجهات معينة بناء على تكوين اتجاهات فكرية معينة فيهم ، مع مراعاة أن الأصل والمقصود من هذه الاتجاهات الفكرية أن تكون على النحو الذي يرتضيه المجتمع ومحققة لأهدافه وغاياته .

ثانياً : التثقيف :

ويقصد به تزويد الأفراد بعناصر معرفية جديدة تزيد فهمهم للحياة في جوانبها المختلفة وتعينهم في صنع القرارات المتصلة بمواقف الحياة المختلفة .

ثالثاً : التعارف الاجتماعي :

ونقصد به إحداث تقارب بين الأفراد وبعضهم والجماعات وبعضها، على المستويين العقلي والوجداني ، عن طريق فرص الاحتكاك والتفاعل بينهم والتي تخلقها أجهزة الاعلام وبرامجها .

رابعاً : الترويح :

الترويح بمعناه الواسع الذي نقصده هو كل نشاط يخرج به الإنسان عن دائرة نشاطه اليومي المتكرر بهدف إدخال عنصر التغيير ومن ثم عنصر البهجة والسرور في حياته اليومية . والترويح بهذا المعنى الشمولي قد يكون ترويحاً موجهاً وراءه فلسفة وأفكار معينة يراد توصيلها لأفراد الجمهور ، وقد يكون ترويحاً غير موجه .

من هذا نستطيع أن نلحظ في يسر وسهولة أن الاعلام في جوهره نوع من التعليم وإن اختلف عن التعليم النظامي التقليدي الذي تقوم به المدارس والجامعات في بعض شكله ومضمونه . والحقيقة أن الاعلام ليس كما يظن البعض أخباراً فحسب ، وليس معلومات فحسب ، بل يمكن القول بأن الاعلام الحديث من خلال البرامج والمواقف الدرامية التي يقدمها هو مدرسة من مدارس الحياة ، وذلك لأنه يقدم من خلال هذه البرامج والمواقف دروساً في فلسفة الحياة مليئة بالقيم والمعايير وأنماط السلوك . ومن خلال المزج بين الواقع والخيال في برامج الاعلام المختلفة تستطيع أجهزة الاعلام التأثير في قيم الأفراد وأفكارهم واتجاهاتهم ومواقفهم في الحياة بما لا تستطيعه أجهزة التعليم النظامي التقليدية . ومن هنا تتضح أبعاد الدور التربوي الخطير لأجهزة الاعلام ، وهو الأمر الذي لم يقتنع به بعد الكثيرون من رجال الاعلام . وعن طريق تجسيد مواقف الحياة بالصورة الجذابة التي تقدمها

أجهزة الاعلام تستطيع هذه الأجهزة مساعدة الكبار والصغار على السواء في فهم عالمهم والتكيف مع متطلبات هذا العالم ، وهذا مجال من مجالات التأثير التربوي يعترف رجال التعليم بعجز المؤسسات التعليمية حتى وقتنا الحاضر عن منافسة أجهزة الاعلام فيه .

أما عن الكيفية التي بها تنحرف أجهزة الاعلام عن الطريق الصواب بحيث تصبح مصدراً من مصادر تلوث البيئة التربوية للإنسان فإنها تستند إلى نفس الأساليب والتقنيات التي تعتمد عليها أجهزة الاعلام والتي جعلت رجال التعليم يعترفون بعجز المؤسسات التعليمية عن منافسة أجهزة الاعلام فيها . فعن طريق المواقف الدرامية التي تخرجها وتقدمها برامج التليفزيون ، على سبيل المثال ، يمكن تصوير الفضائل على أنها نادراً ما تكون طريقاً للسعادة . كما يمكن تصوير الغش والخداع في المعاملات اليومية على أنه طريق أكيد لتحقيق الغنى والرفاهية ويمكن تصوير الخشونة والعنف في التعامل على أنها لازمة في الحياة اليومية . ومع استمرار وقوع المشاهدين تحت تأثير هذه المواقف الدرامية تنطبع في أذهانهم صور مشوهة عن الحياة سرعان ما تتحول إلى إيمان عميق بما يشاهدونه أو يسمعونه ثم يتحول الإيمان إلى سلوك فعلي يتعامل به الناس في حياتهم اليومية . وبذلك تتلوث البيئة التربوية وتنقلب القيم والمعايير الاجتماعية المرغوبة .

وهنا يتساءل الناس ... وأين دور المدرسة ؟ وهم يقصدون بالمدرسة كافة المؤسسات التعليمية على اختلاف أنواعها ومستوياتها . الواقع أن المدرسة ظلت حتى أوائل هذا القرن هي المصدر الأول للمعرفة ، وظل المعلمون هم الموزعون الشرعيون لهذه المعرفة لا ينافسهم في ذلك منافس . ونتيجة لهذا الاحتكار فإن الناس كانوا يعتمدون على المدرسة كمصدر يستمدون منه معرفتهم بالعالم من حولهم ولتنمية قدراتهم على تنمية السلوك الذي يعينهم على اكتساب مكانتهم في الحياة . أما اليوم فإن أغلبية المجتمعات تشهد تنافساً قد يكون مستتر أو مكشوفاً بين النظامين الاعلامي والتعليمي . لقد تطور الاعلام الحديث وتقدمت فنونه وبخاصة خلال السنوات الثلاثين الماضية حتى استطاع أن يثبت قدرته على صنع بيئته التربوية الخاصة ، وأن

يثبت كذلك أن عصر احتكار مؤسسات التعليم النظامي لنشر العلم والمعرفة قد انتهى إلى غير رجعة . وقبل أن يظن البعض أن التنافس بين نظامي الاعلام والتعليم يكون دائماً لخير الجماهير العريضة من الأبناء والبنات فإننا نقول أن الممارسات اليومية تثبت أن هذا التنافس يولد تناقضات خطيرة في عقل الانسان ، وبخاصة الانسان الصغير قليل الخبرة بالحياة .

نعود فنقول أن الأمور قد تطورت بالاعلام الحديث إلى درجة أصبح عندها يهدد وجود المدرسة ويكاد يلغي وجودها . وقد وصل الحال إلى أن بعض المهتمين بالأمر يتجهون بفكرهم وجهات شتى ، فمنهم من ينادي بإغلاق أبواب المدارس وإحلال وسائل الاعلام محلها ، ومنهم من ينادي بضرورة تطوير المدرسة من حيث مبناها ومحتواها حتى تصبح في مثل جاذبية وسائل الاعلام وتشويقها . وفريق ثالث أكثر تفاؤلا ينادي بتحقيق قدر مناسب من التناسق والتعاون بين ما تبذله كل من المدرسة ومؤسسات الاعلام من جهود وصولا إلى تحقيق الأهداف والغايات التربوية .

ونحن وإن كنا نعتبر أنفسنا ضمن الفريق الثالث الذي يؤمن بضرورة التعاون والتنسيق بين جهود مؤسسات التعليم النظامي وجهود أجهزة الاعلام المعاصر فإننا ننبه كل من يهمه الأمر إلى أن طريق التعاون والتنسيق مليء بالأشواك والمصاعب ، وأن جزءً كبيراً من الصعوبة يكمن في الاختلاف الجوهري بين رسالة التعليم النظامي بشكلها التقليدي ورسالة الاعلام الحديث ، فبينما تهتم المدرسة بنقل القيم الثقافية الموروثة عن الماضي نجد الاعلام الحديث يتجه بطبيعته نحو التحديث ونحو تهيئة الأفراد للعيش في عالم جديد يختلف عن عالم الماضي وعالم الحاضر . ومن خلال هذا التوجه تجد مؤسسات الاعلام تشجع الأفراد والجماعات على صنع قيم جديدة تتواءم مع عالم الغد بينما تسعى مؤسسات التعليم التقليدية إلى ترسيخ قيم ورثناها من الماضي . وهنا يكمن التحدي الحقيقي أمام جهود التنسيق والتعاون ، ومؤداه : هل يمكن إحداث مواءمة حقيقية بين الاعلام والتعليم النظامي رغم تباين التوجهات الأساسيـــة ؟

وثمة مصدر آخر من مصادر الصعوبة في طريق التعاون والتنسيق بين التعليم النظامي بشكله التقليدي والاعلام بشكله العصري يكمن في حقيقة أن التعليم النظامي بشكله التقليدي ينزع إلى التحكم في اختيارات الفرد وفي توجيه نوازعه وتفضيلاته ويقيد تحركاته . هذا في الوقت الذي يتيح الاعلام المعاصر للإنسان حريات واسعة في اختيار الزمان والمكان والمحتوى الذي يهواه ، فهو يحمل في جيبه علبة صغيرة يستطيع من خلال الانتقـــال بين موجاتها أن يستمع إلى ما يشاء وقتما يشاء ، وهذا هو جهاز الراديو الحديث . أما التليفزيون الحديث فإنه يقدم للإنسان برامج متنوعة عديدة يختار منها ما يناسب خلفيته الثقافية ويرضي احتياجاته . والصحافة الحديثة تعرض على الإنسان المعاصر العديد من ألوان الصحف بمحتوى كمي لا ينتهي وليس له حدود تخطب رضاه بتقديم حشد كبير من المادة الصحفية يتذوق منه ما يعجبه وما يتفق مع رغباته وميوله حتى لو كانت مادته رخيصة عديمة الهدف .

وعلى الرغم من هذه الصعوبات التي ذكرنا بعضها فإن باب التعاون والتنسيق بين الجهود التعليمية والجهود الاعلامية مازال يتسع لكل جهد مخلص وبشرط أن يدرك العاملون بالاعلام والعاملون بالتعليم خطورة التناقض أو التضارب في الأدوار التي يلعبونها تحت مظلة التربية .

التنسيق والتكامل بين الاعلام والتعليم :

ما زال الكثيرون من رجال التعليم ينظرون إلى الاعلام من زاوية كونه مجرد « وسائل » ... ، وما زالوا ينادون بما تعودنا سماعه منذ ربع قرن من الزمان ويطالبون بالتوسع في استخدام « وسائل » الاعلام في تدريس مقررات دراسية معينة .

وما زالت نظرة رجال التربية إلى الاعلام نظرة قاصرة ومحدودة وعاجزة عن إدراك دور الاعلام المعاصر «كنظام » و «كمؤسسة » من مؤسسات المجتمعات المعاصرة ، مثلها في ذلك مثل مؤسسات التعليم تماماً .

ونحن وإن كنا لا نعارض استخدام « وسائل » الاعلام الحديث داخل قاعات الدرس ، إلا أننا نود أن نؤكد أن هذا الاستخدام لا ينبغي أن يفهم على أنه الاستخدام الأوفى والأكمل لطاقات وامكانات هذه « الوسائل » لأن هذه الوسائل ذاتها يقدم

لنا من خلالها برامج ذات محتوى يتجاوز بكثير محتوى برامج التعليم النظامي ولها تأثيرات تربوية عميقة وبعيدة المدى في تشكيل عقول الناشئة والكبار على السواء تفوق تأثيرات المدرسة التقليدية ، ومن هذا المنطلق يصبح التنسيق والتكامل بين الاعلام والتعليم أمراً حتمياً .

ومن منظور آخر نجد أن العصر الذي نعيش فيه يتسم بالتفجر المعرفي ، ويطلق عليه أحياناً اسم عصر المعلومات . والحقيقة أن كلا الاسمين صحيح لأنه يتضمن سمة من السمات الرئيسية لهذا العصر . وقد ساعد كثيراً على انتقال هذه المعرفة وعلى انتشار هذه المعلومات اجهزة الاعلام الحديث بكل ما أوتيت من امكانات وتقنيات . وفي مقابل هذا فإننا عندما ننظر إلى التعليم النظامي الذي نمارسه في المدارس والجامعات نجده عاجزاً — بكل أسف — عن مسايرة التفجر المعرفي واللحاق بسباق المعلومات . والعيب في هذا قد لا يكون نابعاً كله من أجهزة التعليم ، ولكنه بكل اليقين يرتبط بالأساليب المتبعة في عمليتي التعليم والتعلّم ذاتها . لقد أدرك الكثيرون من رجال التربية ومن رجال التعليم هذه الحقائق وبدأوا يعترفون بقصور المدرسة والجامعة عن اللحاق بمتطلبات التفجر المعرفي وعصر المعلومات ، وأخذوا ينادون بشعارات جديدة تعبر جميعها تعبيراً صادقاً عن أن المدرسة وحدها أصبحت غير قادرة على القيام بما تعودت القيام به عبر القرون . ومن أمثلة هذه الشعارات أو الصيحات شعار « التعليم المستمر » ، « والتعليم مدى الحياة » ، « والتعليم الذاتي » ، إلى غير ذلك من الشعارات التي بدأت تأخذ طريقها إلى التحقيق الفعلي . وفي نظرنا أن في هذه الحقائق ما يبرر ويستلزم التلاحم بين جهود رجال التعليم ورجال الاعلام . ونجد أنفسنا مدفوعين إلى دعوة رجال التعليم إلى أن يمدوا أبصارهم إلى خارج أسوار المدرسة أو الجامعة بأنظمتها وقيودها التقليدية المعروفة . لكي يطلعوا على مافي جعبة الاعلاميين وخبراء الاتصال من أساليب جديدة ونظريات مفيدة . وفي ذات الوقت فإنني أدعو أن تكون العملية التعليمية موضع اهتمام لبحوث علماء الاتصال على اعتبار أن التعليم يعتبر مجالا خصباً ما زال يحتاج إلى تطوير وتعديل مستمرين من أجل زيادة فعاليته وجدواه .

نخلص من كل هذا بأنه قد آن الأوان لأن يدرك رجال التعليم أنه يستحيل عليهم وحدهم أن يحققوا الأهداف التربوية التي يسعون إليها بينما رجال الاعلام يعملون ويجتهدون في اتجاهات شتى يتعارض الكثير منها مع أبسط المبادىء التربوية في تكوين الشخصية العربية السوية . ولقد آن الأوان كذلك لأن يدرك رجال الاعلام أن كل حركة أو سكنة يعبرون عنها في برامجهم بقصد أو بغير قصد يكون لها صدى وتأثير في توجيه وتشكيل عقلية المواطن ومن ثم في تربيته . ولقد آن الأوان أن يدرك رجال الاعلام ورجال التعليم معاً أنه عندما تتضارب جهودهم ووجهاتهم يكون لذلك أسوأ الأثر في عقول ونفوس الجماهير ويؤدي إلى تشكيك جماهير الناس في قيمهم ومعتقداتهم وفي انتماءاتهم ، وفي النهاية تؤدي إلى تكوين شخصيات مهتزة لا تستطيع التمييز بين الخطأ والصواب ، ولا بين الغث والثمين .

إن فكرة اسهام الاعلام العربي في مجال تعليم الجماهير فكرة ليست بجديدة وليست بغريبة . والحقيقة أن رجال الاعلام العرب قد أثبتوا بالقول والعمل صدق نواياهم واستعدادهم لتحمل مسئولياتهم في مجال التعليم كاملة . وتبدأ قصة هذا الاهتمام مع بداية الستينات من هذا القرن . ثم جاء الاذاعيون العرب لكي يعبروا بطريقة رسمية في ميثاق العمل الاذاعي العربي الذي أقرته الجمعية العامة لاتحاد إذاعات الدول العربية التي انعقدت في عمان عام ١٩٧٠ م . وبالنظر إلى المناقشات التي جرت في هذا الاجتماع يتضح لنا أن الاذاعيين العرب يستشعرون خطورة دورهم ومسئولياتهم نحو العملية التعليمية ويؤمنون بضرورة توجيه قدر مناسب من جهودهم نحو خدمة التعليم وحل بعض مشكلاته .

وفي عام ١٩٧٧ أنشىء « جهاز تليفزيون الخليج » بمقتضى اتفاقية أُبرمت في مؤتمر وزراء إعلام دول الخليج العربي . وقد بادر « الجهاز » بإصدار « ميثاق العمل التليفزيوني في دول الخليج » الذي ورد في مادته الثالثة النص التالي : « على الخدمات التليفزيونية أن تقوم بدورها في معاونة السلطات المسئولة عن التعليم المدرسي والجامعي والتعليم خارج المدرسة في إطار خطة متكاملة يشارك الجانبان في وضعها وتحمل مسئولية تمويلها وتنفيذها ومتابعتها » . ويتضح من هذا النص أن

أجهزة تليفزيون دول الخليج العربي بدأت تستشعر أهمية مشاركة الاعلاميين ورجال التعليم في التخطيط والتنفيذ والتمويل والمتابعة للبرامج التعليمية ، وأن مفهوم البرامج التعليمية قد اتسع ليشمل التعليم المدرسي والتعليم خارج المدرسة . ويمكن القول أن اسهام الاعلام العربي في حقل التعليم اسهام آخذ في التزايد مما يبشر بمستقبل أفضل ملؤه التعاون والتناسق بين جهود أجهزة الاعلام وأجهزة التعليم في الوطن العربي.

ولعل أحدث حلقات التعاون والتقارب بين رجال الاعلام ورجال التعليم العرب تلك الندوة التي نظمها مكتب التربية العربي لدول الخليج بالرياض في الفترة من ٢٩ مايو حتى أول يونيو عام ١٩٨٢ ، ودعي إليها عدد من المختصين في كل من ميداني التربية والاعلام في منطقة الخليج وخارجها وكذلك المنظمات العربية والدولية والاقليمية العاملة في مجال التربية والاعلام . وقد حملت الندوة اسما له جاذبية خاصة ، « ماذا يريد التربويون من الاعلاميين » وتحددت أهدافها فيما يلي (١) :

١ — تحديد أهداف الاعلام الموجه إلى أبناء دول الخليج العربي .

٢ — معرفة مدى تحقيق الاعلام لأهدافه المحددة .

٣ — تحديد دور التربويين في تحقيق أهداف التربية من خلال وسائل الاعلام .

٤ — وضع استراتيجية للتنسيق والتعاون والتكامل بين العملية التربوية والعملية الاعلاميـــة .

٥ — تحديد سبل التطبيق العملي للتنسيق والتعاون والتكامل بين العمليتين التربوية والاعلاميـــة .

وقد برزت من خلال المناقشات التي دارت بالندوة مجموعة من الاتجاهات المفيدة والمبشرة بالخير منها الاجماع على ضرورة وضع استراتيجية للتنسيق بين التربية والاعلام ، والحرص على غرس القيم الاسلامية العربية من خلال أجهزة الاعلام والتربية ، والتأكيد على وقاية الأجيال الناشئة من طغيان الغزو الثقافي والفكري ،

---

(١) عن التقرير الختامي والتوصيات ، الصادر عن الندوة المنعقدة بالرياض في الفترة من ٢٩ مايو حتى ١ يونيو عام ١٩٨٢ .

والاهتمام بصبغ برامج الاعلام كلها بالصبغة الاسلامية ، والتأكيد على أهمية الالتزام باللغة العربية في برامج التعليم والاعلام .

لقد كان لنا حظ الاطلاع على بعض البحوث والدراسات التي نوقشت في ندوة الرياض ، وشد انتباهنا كثير من الآراء والأفكار الجديدة التي احتواها البعض منها ، وزاد تفاؤلنا بسبب النوايا الطيبة التي عبر عنها المشاركون في الندوة من الاعلاميين ومن رجال التربية ورجال التعليم . وفي مجال التنسيق والتوازن بين جهود الاعلام وجهود التعليم فقد ذهب الخبراء المعنيون مذاهب شتى فيما يتعلق بتوزيع الأدوار بين الاعلام والتعليم . ومن أمثلة ما يفكر فيه هؤلاء الخبراء ما يلي :

١ — يرى البعض أن يتفرغ التعليم النظامي لنقل التراث والتقاليد المتراكمة عبر الأجيال ، بينما تهتم أجهزة الاعلام بنقل المعرفة الحديثة والمعاصرة .

٢ — ويرى البعض رأياً آخر وهو أن تكرس أجهزة الاعلام جهودها في خدمة الترويح وشغل أوقات فراغ الجماهير إلى جانب تنمية التفاهم عبر الشعوب ، بينما تكرس مؤسسات التعليم النظامي جهودها لتنمية الوعي الاجتماعي الصحيح لدى الأفراد وإعدادهم للقيام بأدوار مسئولة في الحياة تؤدي إلى إحداث تنمية شاملة للمجتمعات .

٣ — وهناك فريق ثالث يرى أن تنظم المدرسة فرصاً للتأمل والتحليل والنقد لكل ما تبثه أجهزة الاعلام ، وتساعد من يتعلمون فيها على الاهتمام بتنظيم وغربلة المعلومات التي تبثها شبكات الاعلام في كل مكان وفي كل اتجاه بطريقة تكاد تكون عشوائية .

٤ — وفريق رابع يرى أنه لم يعد مقبولا من المدرسة النظامية أن تعمل وتجتهد وهي تحسب أنها تعمل وحدها في مجال التعليم ، بل ينبغي أن تطور برامجها واستراتيجيات التعليم فيها بما يسمح بأن تأخذ في حسابها الخبرات العملية التي يكتسبها الأفراد من مصادر أخرى غير المدرسة أهمها أجهزة الاعلام المختلفة .

٥ — وفريق خامس يرى افساح المجال أمام الاعلاميين للمشاركة والإسهام في إثراء البرامج التعليمية المختلفة على أساس كونهم مهنيون يؤثرون بأنشطتهم وبرامجهم في تكوين شخصية المواطن وتربيته .

٦ — وفريق سادس من الخبراء يرى أنه ليس هناك ما يدعو إلى توزيع الأدوار بين الاعلام والتعليم ، ولندع كلا منهما يجتهد بأساليبه الخاصة في تحقيق أهدافه الخاصة مادام يسعى لخير المجتمع .

نريد الاعلام تربوياً :

الواقع أن كل الآراء والمقترحات التي طرحت على الصعيد الاعلامي والصعيد التعليمي العربيين من أجل تحقيق التوازن والتكامل بين العمل الاعلامي والعمل التعليمي ... كلها آراء لها وجاهتها وفوائدها كما أن لها صعوباتها الخاصة ومحاذيرها . ورأينا الشخصي في كل هذه الآراء والمقترحات التي تنبع جميعها من استراتيجية واحدة هي استراتيجية التنسيق والتكامل بين العمل الاعلامي والعمل التعليمي هو أن هذه الاستراتيجية لا يتأتى لها النجاح فيما تسعى إليه دون أن يتحقق لها شرطان ، أولهما أن تتناغم الأهداف الاعلامية والأهداف التعليمية تحت مظلة واحدة هي مظلة التربية العربية . أما الشرط الثاني فإنه يتصل بضرورة أن يكون هناك تحديد واضح مسبق لأدوار العاملين في الاعلام وفي التعليم بما يحقق التناسق والتكامل بين هذه الأدوار ، وهذا الشرط الثاني يتطلب بدوره إعادة النظر في برامج تدريب وإعداد العاملين بالاعلام وبالتعليم بحيث يصبحوا قادرين على الاضطلاع بمهام أدوارهم الجديدة في إطار التنسيق والتكامل .

وبالنظر إلى كل هذه الآراء وغيرها فإننا نلحظ أن غالبيتها تدور حول فكرة واحدة هي « وضع الاعلام العربي في خدمة التعليم » . والحقيقة أن هذه الفكرة رغم أهميتها وضرورة وضعها موضع التنفيذ ، ورغم الصعوبات والعقبات التي تقف في طريق تنفيذها ، فإنها فكرة متواضعة إذا قيست أو قورنت بتوقعاتنا من أجهزة الاعلام العربي . فنحن عندما ننادي بضرورة التلاقي والالتحام بين الاعلام

والتعليم فإننا لا نسعى بذلك إلى خلق اعلام متخصص أو برامج اعلامية متخصصة في شئون التعليم ، ولكننا نبغي إعادة صياغة الأهداف الاعلامية العربية بما يتفق مع الأهداف التربوية العليا المتفق عليها ، والتي هي في خلاصتها تتبلور حول تكوين وصقل شخصية الإنسان العربي ، ثم توجيه كافة الأنشطة والبرامج الاعلامية نحو تحقيق هذه الأهداف . ورغم تقديرنا واعجابنا بالبحوث والدراسات التي نوقشت في ندوة الرياض فإننا نود أن نؤكد لأصحابها الذين لا نشك في إخلاصهم نحو التربية والتعليم ، أنه قد مرت عشرات السنين ونحن ننادي بأهمية التنسيق بين جهود أجهزة الاعلام وأجهزة التعليم ، ولكن فكرة التنسيق كهدف قد أصبحت غير ذات فائدة كبيرة ونحن في الثمانينيات من القرن العشرين ، وذلك لأن تطور الأمور بات يتطلب شيئاً أعمق وأبعد وأشمل من مجرد التنسيق . أن ما نحتاجه حقيقة في هذه المرحلة من تطور مجتمعاتنا هو أن تصبح كل برامج الاعلام العربي ، سواء جاءت عن طريق الصحافة أو الاذاعة أو السينما أو التليفزيون تصبح تربوية في أهدافها وتربوية في محتواها ... ترعى الصدق وأمانة التعبير ونزاهة الكلمة ، وتعمق في نفوس الناشئة والبالغين على السواء أسمى المعاني الانسانية والقيم النابعة من تراثنا الإسلامي والعربي وتغرس في نفوسهم اتجاهات وميول تتواءم مع المستقبل الذي ترنو إليه أُمتنا ، وتوثق العلاقات الاجتماعية بصورة إيجابية بناءة .

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية الصعبة فإننا نتوقع لأجهزة الاعلام العربية أن تجد نفسها مضطرة إلى دخول معركة حامية ضد محاولات الغزو الثقافي والفكري الأجنبية . وقصة الغزو الثقافي والفكري الأجنبي قصة طويلة ومتشعبة يكفينا منها ذلك الجزء الذي بدأ منذ منتصف هذا القرن . لقد شهدت السنوات الأخيرة منذ منتصف هذا القرن ثورة هائلة في تكنولوجيا الاتصال دعمتها وعمقت آثارها تلك الطفرة الهائلة والتقدم الكبير في استخدام الحاسبات الالكترونية والأقمار الصناعية في اتصالات الفضاء . وكان طبيعياً أن تستفيد أجهزة الاعلام وأجهزة التعليم مما استحدثته التكنولوجيا الحديثة في الاتصال على أمل زيادة فعالية الجهود الاعلامية والتعليمية ، غير أن التكنولوجيا الحديثة في الاتصال صاحبها وواكب ازدهارها حملات مكثفة وجهود

مخططة من جانب الدول التي اخترعتها وطورتها لغزو دول العالم النامي ثقافياً وفكرياً . وهنا تبرز أهمية الدور الذي يجب أن تلعبه المؤسسات الاعلامية والذي يتمثل في حماية ووقاية الأجيال الناشئة بل والبالغين كذلك ، من طغيان ذلك الغزو الثقافي والفكري بما يحمله من قيم غريبة على ثقافتنا العربية الاسلامية .

لقد بلغت حملات الغزو الثقافي والفكري أقسى درجات ضراوتها في السنوات الأخيرة مما جعل وزير الثقافة الفرنسي يقف أمام مندوبي دول العالم في المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي انعقد في المكسيك في أواخر شهر يوليو سنة ١٩٨٢ ... وقف يهاجم في عنف الولايات المتحدة الأمريكية ويتهم جهودها الرامية إلى السيطرة على وسائل الاعلام العالمية ويحض دول العالم على مكافحة الامبريالية الثقافية وعلى تخليص نفسها من استعمار شبكات الاذاعة والتليفزيون العالمية . واقترح الوزير الفرنسي إنشاء نظام تليفزيوني يعمل بالأقمار الصناعية تحت إشراف اليونسكو على اعتبار أنها منظمة دولية بعيدة عن التحيزات الاقليمية والأهواء الاستغلالية .

والحديث عن الغزو الثقافي والفكري المقصود الذي تقوم به الدول ذات الطول في مجال الاعلام والاتصالات الفضائية لا ينبغي أن يؤدي بنا إلى عزل أنفسنا عن تيارات الفكر العالمي أو عن التعرف على ماهو جديد ومفيد من النظريات والكشوفات العلمية ، ولا أن نقيم حجراً اعلامياً يصم آذاننا ويعمي أنظارنا عن تطوير أنفسنا وتحديث أنظمتنا بما يتمشى مع متطلبات العصر وبحيث لا يفقدنا الجزء الأصيل في تراثنا الثقافي والفكري . وفي ذات الوقت الذي نرفض فيه العزلة الثقافية ولا نحبذ قيام حجر إعلامي حولنا فإننا نرى أن البديل المنطقي الناجع هو أن ندعم البرامج الاعلامية بكل ما هو أصيل ذو قيمة تتفق مع القيم والتطلعات العربية الاسلامية .

ولأن الهدف الذي نسعى إليه ، وهو جعل الاعلام العربي تربوياً في غاياته ومحتواه وأساليبه وتقنياته ، هدف بعيد المدى فإنه يستلزم إعداد العدة له من الآن . وقد يكون مفيداً أن نتخذ من التنسيق والتكامل بين برامج الاعلام وبرامج التعليم هدفاً مرحلياً في الطريق نحو الهدف الأعم والأشمل الذي لا نظنه سوف يتحقق قبل

أن تحدث تعديلات جوهرية في بنية المؤسسات الاعلامية والمؤسسات التعليمية بدءاً بإعادة النظر في برامج إعداد الاعلاميين والمعلمين وتطوير محتواها بحيث يتحقق الالتحام الفكري والتقاء التوجهات الأساسية لكل من طائفتي الاعلاميين والمعلمين ، وهذا في رأينا يمثل التحدي الكبير الأول الذي قد يستغرق الجزء الأكبر من جهودنا ووقتنا .

مراجـــع الدراسة

١ – إبراهيم إمام : « الاعلام الإذاعي والتليفزيوني » ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٢ – أبو الفتوح رضوان وآخرون : « التربية ومشكلات المجتمع » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٣ – سيد إبراهيم الجيار : « التربية ومشكلات المجتمع » ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٧٤ .

٤ – محمد الهـادي عفيفي : « في أصول التربية » ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥ – محمد الهادي عفيفي وآخرون : « التربية ومشكلات المجتمع » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٦ – محمد سيد محمد : « الاعلام والتنمية » ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٧ – محمد علي العويني : « الاعلام العربي » ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٨ – محمد علي العويني : « الراديو والتنمية السياسية » ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

٩ – مكتب التربية العربي لدول الخليج – ندوة « ماذا يريد التربويون من الاعلاميين» الرياض – المملكة العربية السعودية ، يونيو ١٩٨٢ :

أ – التقرير الختامي والتوصيات .

ب – الوثيقة المرجعية رقم (١) : « الامكانات التربوية لوسائل الاتصال والاعلام الحديث » مترجم عن « أصوات متعددة وعالم واحد – اليونسكو ، ١٩٨١ .

جـ — الوثيقة المرجعية رقم (٢) : « آفاق جديدة من أجل التنمية في البلدان العربية »، منظمة اليونسكو بالتعاون مع اليونسكو ١٩٧٧ .

د — الوثيقة المرجعية رقم (٣) : « الاتصال بين الناس وبين الثقافات ، منظمة اليونسكو ، مشروع الخطة ٨٤ — ١٩٨٩ .

هـ — مجموعة البحوث والدراسات الخاصة بالندوة وعددها (٢٨) ثمانية وعشرون بحثاً ودراسة .

10 — Smith, A.G., "Communication and Culture", Holt, Rinehart and Winston, New York, 1966.

11 — Klapper, J.T., "The Effects of Mass Communication" The Free Press, New York, 1966.

12 — U.S. Dept. of Health and Human Services, National Institute of Mental Health, Television and Behavior, Ten Years of Scientific Progress and Implications for the Eighties, Vol. I, Summary Report, 1982.